مؤتمر
تحديات ما بعد الربيع العربي
تجمع الأصالة- مجلة البيان
المركز العربي للدراسات الإنسانية
ليبيا - طرابلس (٩ - ١٠) صفر ١٤٣٤هـ (٢٢- ٢٣) ديسمبر ٢٠١٢م

بحوث مؤتمر

تحديات ما بعد الربيع العربي

المركز العربي للدراسات الإنسانية
مجلة البيان
تجمع الأصالة
نحو أفق أوسع

دور العلماء في تعزيز الهوية والنهوض بالأمة

ورقة مقدمة لمؤتمر (تحديات ما بعد الربيع العربي)

كتبها: عبد الحي يوسف
نائب رئيس هيئة علماء السودان

تجمع الأصالة نتوافق أوسع
مجلة البيان
المركز العربي للدراسات الإنسانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فبعد ثورات الربيع الإسلامي التي كان من ثمارها الطيبة تجديد ثقة الأمة في دينها، وإسلامها قيادها لمن تظن أنهم أهل الدين الحافظون لحدوده القائمون بأمره؛ لا بد أن يكون للعلماء – أهل الحل والعقد – دور مشهود في تجديد تعاليم الدين وتقوية أواصر المحبة بين المؤمنين وإعلاء شأن القيم الحميدة والأخلاق النبيلة، بعدما كان لهم القدح المعلى في إذكاء روح الجهاد في الأمة، فمنهم من أفتى بالخروج على الطاغوت، ومنهم من رغب الناس في الشهادة، ومنهم من كانت كلماته سوط عذاب على الجبابرة من عتاة البشر؛ حيث ألهبت حماسة المسلمين فواجهوا النيران والطغيان حتى كتب الله لهم إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وكانت منابر الجمعة منطلقاً لتلك الثورات المباركة التي يتفيأ الناس ظلالها ويرجون بركتها

كتبت هذه الكلمات التي أسأل الله أن يجعلها نافعات، لعلها تسهم في تجلية دور العلماء في تجديد الهوية والحفاظ عليها، ولا بد بداية من الضبط المصطلحي لمفردات عنوان البحث

من هم العلماء؟

نعني بهم العلماء الربانيين الذين فقهوا عن الله مراده، وحفظوا حدوده؛ ولم يشتروا بآيات الله ثمناً قليلا، ويقيناً لا يدخل في هذا الحديث علماء السوء ممن هادنوا الطغيان فنطقوا بالباطل وشهدوا بالزور، وعملوا على تثبيط الهمم واكتساح العزائم، وأرادوا للناس أن يكونوا قابعين قانعين بالذل والهوان؛ علماء السوء نعني بهم أولئك الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها"[١]، وهذه الظاهرة ليست جديدة بل هي في كل زمان ومكان لا يخلو الأمر من علماء باعوا دينهم بدنيا غيرهم ولووا ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ولطالما حدثنا القران عن علماء بني إسرائيل الذين كانوا (يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)[٢]. وقد قال عيسى بن مريم –عليه السلام- مصوراً حال أولئك وكيف أنهم يصدون عن سبيل الله بمعسول القول وسيء العمل: (مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء كمثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر، وباطنها عظام الموتى"[٣].

---

(١) الغزالي –إحياء علوم الدين ١/ ٧٣.

(٢) سورة البقرة:٧٩.

(٣) الغزالي – إحياء علوم الدين ١/ ٧٤.

ما هي الهوية

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: ((كلّ طائفة من بني آدم لا بد لهم من دين يجمعهم إذ لا غنى لبعضهم عن بعض، وأحدهم لا يستقل بجلب منفعته ودفع مضرّته، فلا بد من اجتماعهم، وإذا اجتمعوا فلا بد أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كّلهم، مثل نزول المطر، وذلك محبّتهم لهاً وفي دفع ما يضرهم مثل عدوّهم، وذلك بعضهم له، فصار ولا بدّ أن يشتركوا في محّبة شيء عامّ، وهذا هو دينهم مثل عدوّهم، وذلك بغضهم له، فصار ولا بدّ أن يشتركوا في محبة شيء عامّ، وهذا هو دينهم المشترك العامّ، وأمّا اختصاص كلّ منهم بمحبّة ما يأكله وبشربه وينكحه، وطلب ما يستره باللّباس، فهذا يشتركون في نوعه لا في شخصه، بل كلّ منهم يحبّ نظير ما يحبّه الآخر لا عينه، بل كلّ منهم لا ينتفع في أكله و شربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر، بل بنظيره.

وهكذا هي الأمور السّماويّة في الحقيقة، فإنّ عين المطر الذي ينزل في أرض هذا، ليس هو عين الذي ينزل في أرض هذا، ولكن غيره، ولا عين الهواء البارد الذي يصيب جسد أحدهم، قد لايكون نفس عين الهواء البارد الذي يصيب جسد الآخر، بل نظيره، لكنّ الأمور السماوية تقع مشتركة عامة، ولهذا تعلق حبّهم وبغضهم بها عامة مشتركة بخلاف الأمور التي تتعلق بأفعالهم كالطعام واللّباس، فقد تقع مختصّة، وقد تقع مشتركة.

وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها، يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم، والأمور التي تضرهم، يحتاجون أن يحرّموها على نفوسهم، وذلك دينهم، وذلك لا يكون إلا باتّفاقهم على ذلك، وهو التعاهد و التّعاقد، ولهذا جاء في الحديث: (لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له)[١]

ويقول الدكتور محمد إسماعيل المقدم: الهويّة هي حقيقة الشيء، أو الشخص، التي تميزه عن غيره، فهي ماهيته، وما يوصف ويعرف به، من صفات عقلية، وجسمية، وخلقية، ونفسية، كما في حديث أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها قالت: كنت أحبّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذاني دونه، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ونزل قباء، غدا عليه أبي وعمي مُغلّسين، فلما يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالّين ساقطين يمشيان الهوينا، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي: (أهو هو؟)، قال: (نعم والله)، قال عمي: (أتعرفته وتثبته؟)، قال: (نعم!)، قال: (فما في نفسك منه؟)، أجاب:

(١) جامع الرسائل لشيخ الإسلام أبن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، المجموعة الثانية، دار المدني بجدة، ط ١ عام ١٤٠٥هـ، ص - ص ٢١٨ وما بعدها..

(عداوته، والله ما بقيتُ!)[١]

إذن فالهوية هي: (المفهوم الذي يكوّنه الفرد عن فكره وسلوكه اللذين يصدران عنه، من حيث مرجعهما الاعتقادي والاجتماعي)[٢] وقد امتدح القرآن الكريم هذه الهوية وأثنى عليها باعتبارات، منها:

أنها أحسن قولاً، وأحسن عملاً، وأحسن قضيةً، وأحسن نسبة، قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٣]

وهي الهوية الكاملة المرضية من الله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً}[٤]

وهي صبغة الله، قال عز وجل {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}[٥]

ومن خصائصها الوسطية في كل شيء كما في قوله {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً}[٦]

والانتساب إليها انتساب إلى خير أمة، كما قال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[٧]

إن الهوية الإسلامية انتماء إلى الله عز وجل وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى عباد الله الصالحين، وأوليائه المتقين، من كانوا، ومتى كانوا، وأين كانوا؛ قال تعالى {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}[٨] وقال سبحانه {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}[٩]

(١) رواه الحاكم في المستدرك
(٢) مجلة البيان العدد ١٢٨ ربيع الآخر ١٤١٩
(٣) سورة فصلت ٣٣
(٤) سورة المائدة ٣
(٥) سورة البقرة ١٣٨
(٦) سورة البقرة ١٤٣
(٧) سورة آل عمران ١٠٤
(٨) سورة المائدة ٥٥-٥٦
(٩) سورة التوبة ٧١

شواهد تاريخية على دور العلماء في حفظ الهوية

١ـ في أثناء الحملة الفرنسية على مصر كان العلماء هم الذين يوجهون الثوار، وقد فطن لذلك نابليون بونابرت؛ قاتله الله فولج للناس من باب الدين؛ هذا هو المنشور الذي وجهه نابليون للمصريين وقد افتتح بعبارة تقول : (بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله لا ولد له ، ولا شريك له في ملكه ، ثم يقول : يا أيها المصريون ، قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح لا تصدقوه ، وقولوا للمغتربين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله –سبحانه وتعالى– ، وأحترم نبيه والقرآن الكريم.. ثم يضيف كاذباً : أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجرنلجية وأعيان البلاد ، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون (وفي النص الفرنسي : محبون للمسلمين المخلصين" !!

٢ـ على أيام ثورة المصريين على الإنجليز كانوا يدركون أنها ثورة إسلامية، ويرون في ذلك الخطورة البالغة، كما عبّر عن ذلك اللورد اللنبي المندوب السامي في مصر بقوله: إن الثورة تنبع من الأزهر، وهذا أمر له خطورته البالغة .. أفرجوا عن سعد زغلول وأعيدوه إلى القاهرة.[١] واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب

٣ـ جهاد الإنجليز في السودان تولى أمره العلماء وأهل الدين بقيادة محمد أحمد المهدي؛ حتى توجوا ذلك بمقتل المندوب الإنجليزي (غوردون) ثم هزيمة الحملة الإنجليزية بقيادة (هكس باشا)[٢]

٤ـ في ليبيا كان العلماء وأهل الدين – بقيادة عمر المختار – على رأس الأمر في جهاد الصليبيين الطليان، وسجلوا في ذلك أروع الملاحم وأعظم البطولات مما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء.

٥ـ بلاد المسلمين في البوسنة والهرسك تعرضت للاحتلال النمساوي، والاحتلال الصربي (المملكة اليوغسلافية) وبعد ذلك الاحتلال النازي (الكروات) والشيوعيين، وقد كان علماء تلك البلاد حكماء في تعاملهم مع تلك الظروف كلها؛ وكان هدفهم الحفاظ على الإسلام، وفي دستور المشيخة الإسلامية إشارة إلى "أننا سنبقى على هذا الحال إلى أن تعاد مؤسسة الخلافة في الأمة الإسلامية، وحالما تعاد مؤسسة الخلافة نحن سننضم إليها بدون أي نقاش "لماذا؟" لأننا نحس بموجب ديننا الإسلامي بأننا جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية. ونحن في هذه المناسبة أكدنا وذكّرنا أوروبا أننا مستقلون في شئوننا الدينية، بموجب وجودنا الجغرافي في القارة الأوروبية، ولكن لنا الحق ومصرون على أن أوربا تعلم بأننا منتمون للأمة الإسلامية وليس

---

(١) واقعنا المعاصر

(٢) لست معنياً ها هنا ببيان ما كان عليه المهدي رحمه الله في بعض منشوراته من خطأ بين حين أحرق كتب المذاهب الأربعة وزعم لنفسه أنه المهدي المنتظر وأنه لن يقبض حتى يدخل مكة والمدينة فاتحاً... ألخ

تجمع الأصالة ثوابت ومواقف
مجلة البيان
المركز العربي للدراسات الإنسانية

لغيرها وأننا جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، لها علينا واجبات، ونحن ملتزمون بتبعات انتمائنا إليها؛ هذا لا يمنعنا أن نشترك مع أوربا في علاقات مختلفة لأننا نعيش في القارة الأوروبية، ونعيش ونمارس ونطبق الثقافة الإسلامية، لأن الشمس لا تزال تبزغ من الشرق".(١)

كان الخطباء والأئمة و طلاب العلم الشرعي في مقدمة من تصدى لعمليات الإبادة، وقتل عدد كبير من الأئمة والطلاب في أثناء العدوان، كما أدى الأئمة دورا بارزا في الحفاظ على هوية المسلمين من خلال نشاطاتهم في محيط المهجرين في دول الجوار والعالم سواء الذين بعثتهم المشيخة للإقامة بين المهجرين أو الذين كانت ترسلهم في المناسبات، كما أدت المشيخة دورا كبيرا في إيصال الغذاء والأدوية إلى المحتاجين عن طريق مؤسسة المرحمة التابعة لها بالتعاون مع الهيئات الإغاثية الإسلامية، وأدت المشيخة دورا كبيرا في التعريف بقضية البوسنة في العالم الإسلامي وغيره من خلال الاتصالات التي كانت تجريها بالتنسيق مع الحكومة البوسنية.(٢)

٦ـ لما ظهرت بوادر الغزو الثقافي لبلاد المسلمين، وظهر من بني جلدتنا من يطعن في الدين ويدعو للسير في ركاب الكافرين؛ فكتب طه حسين "علينا أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يُعاب، وأن نشعر الأوربي بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوم الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها ...»(٣)

ما هي القضايا التي ينبغي التركيز عليها لحفظ هوية الأمة في زماننا؟

لا شك أن الدين كل لا يتجزأ؛ ويجب علينا أن ندعو إليه كله، مثلما نؤمن به كله، ونحرص عليه كله؛ لكن ثمة قضايا جرى مسخها ومحاولة محوها وطمسها، أرى أن العناية الكبرى ينبغي أن تتجه إليها، وهي على سبيل الاختصار:

أولاً: التذكير بوجوب الدعوة إلى الله تعالى

فهي عنوان خيرية هذه الأمة)ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

(١) دور الفتوى في الحفاظ على الهوية الإسلامية في البلقان ١٧
(٢) المرجع السابق ٢٢
(٣) مستقبل الثقافة في مصر ٤٤

وأولئك هم المفلحون[١] وبرهان ريادتها للأمم (كنتم خير أمة أخرجت للناس)[٢] ودليل وراثتها للنبيين (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين)[٣] وبها استوجبت الأجر على الله (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المحسنين)[٤] ولو فرطت الأمة في واجب الدعوة والبلاغ فقد سقطت من عين الله تعالى، واستحقت مقته وعذابه، إذ ما شرع الله الجهاد بما فيه من ذهاب النفس والمال وحصول المكروه فيهما إلا قياماً بهذا الواجب (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)[٥] وحق على الدولة المسلمة أن توفر للدعوة ما تحتاجه من طاقات بشرية وموارد مالية، وما يكفل لها ترقية الأداء وحسن العرض بأفضل الأساليب وأحدث التقنيات، وقد مضى زمان قد كانت الدعوة فيه قائمة على جهود فردية واجتهادات شخصية أثمرت خيراً أحياناً، وخلفت شروراً في أحيان أخرى، أقول: في زماننا هذا لا بد أن يتوفر على التخطيط للدعوة هيئات ورجال وبحوث ودراسات حتى ندرك من قبلنا ونصلح ما أفسد غيرنا، أما التخبط والارتجال والفوضى فلا تصلح لزمان قد صارت لغة الأرقام والإحصائيات هي المعول عليها في كل شيء.

ثانياً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وهو سبب لأمن المجتمعات وحفظ الحقوق ونزول رحمة الله ومنع المفسدين من أن يتعدى فسادهم إلى غيرهم، وقد جعله الله عز وجل شرطاً لخيرية هذه الأمة[٦] وعلامة لأهل الإيمان فيها[٧] كما أن تركه سبب لنزول اللعنة وحصول المقت[٨]، وفي سنة النبي e تواترت النصوص في بيان أن هذا الأمر سنة ماضية وفريضة محكمة لا يسع مسلماً إنكارها أو التفصي عنها، ومن ذلك:

١ـ حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال {بايعنا رسول الله e على أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم} متفق عليه

٢ـ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال {إذا رأيت أمتي

(١) سورة آل عمران ١٠٤
(٢) سورة آل عمران ١١٠
(٣) سورة يوسف ١٠٨
(٤) سورة الأعراف ١٧٠
(٥) سورة الأنفال ٣٩
(٦) في قوله سبحانه ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))
(٧) في قوله سبحانه ((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله))
(٨) في قوله سبحانه ((لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون))

تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُودِّع منهم} رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد

٣ـ عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال {أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير: أوصاني ألا أخاف في الله لومة لائم وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مُرّاً} رواه ابن حبان في صحيحه

٤ـ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {لا يحقرن أحدكم نفسه} قالوا: يا رسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه؟ قال {يرى أن لله عليه مقالاً، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا أو كذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى} رواه ابن ماجة

٥ـ روى الحسن البصري فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {لا تزال هذه الأمة بخير تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالِ قراؤها أمراءها، ولم يترك صلحاؤها فجارها، ولم يهار أخيارها أشرارها، فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم يده، ثم سَلَّط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، وضربهم بالفقر والفاقة، وملأ قلوبهم رعباً}

وبعد هذا كله يراد لنا أن نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى رأينا من ينعى على الناس في بعض البلاد كيف يمنعون المجاهرة بالإفطار في نهار رمضان؟ وكيف يحظرون المسكرات؟ وكيف يفرضون الحجاب ـ أو الزي المحتشم ـ على طالبات الجامعات؟ ونجد من بين طلبة العلم ـ بَلْهَ عامة الناس ـ من يريد أن يحظر على الأئمة وأهل العلم بذل النصيحة للسلطان إلا بإذن منه بل هناك من يضيق عطنه إذا سمع درساً أو موعظة عبر مكبرات الصوت الخارجية في مسجد ما فيدعو إلى منع ذلك بدعوى أن فيه تشويشاً واعتداء على حريات الآخرين وفي الوقت نفسه لا يتمعر وجهه لكثرة الحفلات الغنائية التي تنعق فيها الأصوات النشاز (وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

ثالثاً: تمييز العلاقة بين الحاكم والمحكوم وفق أدب القرآن والسنة

وقد حدث في هذا الباب خلط كثير عند فئام من الناس ما بين مفرط ومفرط، ومن أوجب واجبات الخطاب الدعوي في أيامنا هذه أن يبين للناس واجباتهم تجاه حكامهم،وحقوقهم على رعاتهم، حتى يسلم كل امرئ مسلم من الغلو والتقصير ما بين أناس يريدون أن يؤلهوا الحاكم فلا ينتقد ولا يؤمر ولا ينهى ولا ينبه على خطئه، وآخرين لا هم لهم إلا ذكر مثالب الحكام وتتبع زلاتهم وزرع الكراهية في نفوس الرعية تجاههم {ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه} فلا بد من ذكر الحقائق الشرعية في هذا الباب، ومن بينها:

١) السمع والطاعة لهم في المنشط والمكره، والعسر واليسر، في غير معصية.

٢) عدم منازعتهم فيما ولاهم الله من أمر المسلمين، بل نعتقد أنهم في بلاء، وندعو لهم بالمعافاة.

٣) الوفاء ببيعتهم، وعدم إعانة الخارجين عليهم؛ قال الإمام القرطبي: "لو خرج خارجي على إمام معروف بالعدالة وجب على الناس جهاده، فإن كان الإمام فاسقاً والخارجي مظهراً للعدل لم ينبغ للناس أن يسرعوا إلى نصرة الخارجي حتى يتبين أمره فيما يظهر من العدل، أو تتفق كلمة الجماعة على خلع الأول؛ وذلك أن كل من طلب مثل هذا الأمر أظهر من نفسه الصلاح حتى إذا تمكن رجع إلى عادته من خلاف ما أظهر "(١)

٤) بذل النصيحة لهم في رفق ورحمة، مع توقيرهم ومعرفة حقهم.

٥) عدم متابعتهم في الباطل وتزيين المنكر لهم، بل لا بد من الإنكار عليهم ـ بالطرق الشرعية ـ وبيان الحق لهم، والحرص على أمرهم بالمعروف.. عن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد بريء، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع))، قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: ((لا، ما صلوا)).

٦) أداء الصلاة معهم وراءهم ما داموا مسلمين.

٧) هذه الطاعة ليست قاصرة على صنف من الحكام البررة ذوي النسب الشريف، بل هي لكل من ولي أمر الأمة مسلماً، براً كان أو فاجراً، شريفاً أو وضيعاً.

رابعاً: وجوب الحكم بما أنزل الله

وهذه من القضايا التي يراد للناس نسيانها وذلك بتخويف الدعاة إليها ورميهم بالتهم الباطلة من جنس قولهم: أصولي ـ متطرف ـ ظلامي ـ خارجي ـ سروري ـ تكفيري ـ رجعي ـ... إلى آخر ذلك النبز الذي يعف عنه لسان المسلم ويتورع عنه المؤمن (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبينا)(٢) لا بد للدعاة من التأكيد على أهمية هذه القضية من الدين وأنها تمثل ببعدها العقدي والعملي أساس الدين ولبه، في قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم... إلى قوله تعالى: إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقا)(٣) يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى عن هذه الآيات: ذم الله عز وجل المدعين الإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٧٣
(٢) سورة الأحزاب ٥٨
(٣) سورة النساء ٦٠-٦٢

الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك[١] وغيرهم، وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً، وإذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم، قالوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات.

ويقول محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾[٢]: والآية ناطقة بأن من صد وأعرض عن حكم الله ورسوله عمداً ولا سيما بعد دعوته إليه وتذكيره به، فإنه يكون منافقاً لا يعتد بما يزعمه من الإيمان، وما يدعيه من الإسلام.

ولا يهولن الداعية إلى الله ما ينبزه به خصومه من تلك الألقاب التي هم أحق وأهلها، ولكن هذه سنة الله في الأولين والآخرين)كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون[٣]. ويبقى الحق حقاً)فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى يصرفون[٤]

خامساً: التأكيد على وجوب الوحدة بين المسلمين

هذه هي قضية القضايا التي ينبغي الطرق عليها والتركيز في عرضها بالليل والنهار سراً وعلانية في عصرنا هذا، وهي من القضايا التي تحصل فيها الغفلة كثيراً بين الاختلافات الحزبية والمصالح القبلية، والتي قد يتورط بعض الدعاة بل والمؤسسات الدعوية فيها، لا بد أن نلقي في روع المسلمين الذين يتلقون الخطاب الدعوي عنا أنه واجب على المسلمين أن يكونوا أمة واحدة كما أراد الله لهم ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[٥] وأن تفرقهم وتشرذمهم حرام، وأن العدو يحرص على أن يميِّز المسلمين ويفرقهم رغبة منه في التحريش بينهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين جمهورهم، وكل من أعان على ذلك وساهم فيه فقد خدم أعداء الإسلام من حيث يشعر أو لا يشعر، وأنه واجب على الناس أن يتناسوا خلافاتهم الفقهية واختلافاتهم الحزبية وتبايناتهم القبلية في زمان عاد كل مسلم مستهدفاً فيه من أجل إسلامه لا لشيء آخر ﴿ود كثير من أهل

---

(١) يعني التتر
(٢) سورة النساء ٦١
(٣) سورة الذاريات ٥٢-٥٣
(٤) سورة يونس ٣٢
(٥) سورة المؤمنون ٥٢

الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)(١) فالله الله في وحدتكم يا أهل القبلة.

سادساً: العودة إلى مصطلحات القرآن في تصنيف الناس

إن الحرب الإعلامية التي يقودها أهل الباطل ضد الحق وأهله قديمة قدم الحق والباطل، وقد قرأنا في القرآن قول فرعون عن موسى عليه السلام (ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدِّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)(٢) والواجب علينا إزاء هذه الحرب الإعلامية التي يشنها اليهود والصليبيون على الإسلام وأهله في هذا الزمان أن نلزم الحذر فلا نردد ما يزخرفون من قيم ومفاهيم ومصطلحات؛ لأننا لو اكتفينا بأن نكون ناقلين عنهم لترتب على ذلك النقل مصيبتان:

أولهما: تثبيت مفاهيم دخيلة

ثانيهما: خلخلة مفاهيم أصيلة

إن الواجب على العلماء والدعاة أن يعمدوا إلى المصطلحات الشرعية الأصيلة النابعة من القرآن والسنة فيستعملونها ويشيعونها بين الناس حتى تعود دارجة بينهم سهلة على ألسنتهم، ومن أمثلة ذلك:

تقسيم القرآن الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق، نجد بدلاً منه تقسيمهم إلى يميني ويساري ومتشدد ومعتدل ومستنير وأصولي إلى آخر تلك المنظومة الإعلامية التي سرت حتى إلى خطب المنابر وأحاديث الدعاة والعلماء

حديث القرآن عن القيم والمنجزات الحضارية والأعمال البشرية وفق معايير شرعية ومصطلحات إسلامية كالحق والباطل والعدل والظلم والخير والشر والمعروف والمنكر، نجد بدلاً منها مصطلحات هلامية كالرجعية والتقدمية والإيجابية والسلبية

ومن ذلك مصطلح الإرهاب الذي غدا أكثرها شيوعاً وتناولاً في أحاديث الساسة وبرامج الإعلام ومقالات المفكرين، وأدمنت الجهات المعادية للمسلمين أن تطلقه على المقاومة المشروعة التي تقوم بها بعض الشعوب دفاعاً عن عزتها وكرامتها، وتتعمد الخلط والتلبيس حتى على بعض فئام من المسلمين!! تُرى ماذا يراد بهذا المصطلح؟ وهل الإرهاب والمقاومة لفظان مترادفان معناهما واحد؟ أم بينهما كما بين المشرق والمغرب؟

---

(١) سورة البقرة ١٠٩
(٢) سورة غافر ٢٦

سابعاً: بيان عدل الإسلام في معاملة غير المسلمين

لقد أثار الغربيون بوسائل شتى حملة مفادها أن المسلم لا يحتمل غيره وأنه يريد للناس جميعاً ـ من غير المسلمين ـ أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم أو ينفوا من الأرض ـ وأعدوا الخطط ليجعلوا من الإسلاميين دعاة الإرهاب المذموم في العالم؛ حتى ترتبط صورة المسلم في أذهان الناس بمنظر العنف والدماء والأشلاء، وحتى يصير المسلم عند العامة رمز الخراب والدمار، وهاهنا لا بد من أن نحذر الإفراط والتفريط، فإن بعض الناس في سبيل الدفاع عن الإسلام ـ زعم ـ يريد أن يلغي الفوارق الشرعية بين المسلم والكافر، ويعمد إلى التلبيس والتدليس حين يقول: بأن الإسلام لا يميز بينهما، وها هنا لا بد أن نشيع بين عامة الناس وخاصتهم أن غير المسلمين ليسوا سواء في نظرة الإسلام إليهم ومعاملته إياهم، ونركز في ذلك على أمرين مهمين:

أولهما: بيان ما يفرضه علينا ديننا من معاملة المسالمين لنا من غير المسلمين معاملة حسنة، وأن نفرق في المعاملة بينهم وبين المحاربين الذين يؤذون المسلمين في دينهم، قال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون[١]) وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته خير مثال للمسلم العادل الذي ينزل كل إنسان منزلته ويعامله بما يستحق من غير حيف ولا ظلم، وقد توضأ صلى الله عليه وسلم من مزادة مشركة وأكل من طعام يهودية، وعاد الغلام اليهودي لما مرض وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي.

ثانيهما: هذه المعاملة الحسنة لا تعني المداهنة في الدين؛ بأن نعامل غير المسلم وكأنه مؤمن بالله ورسوله، فكل من بلغته رسالة الإسلام ثم لم يؤمن به ولم يقر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم، بل أنكر أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله، أو أن القرآن كلام الله، فإنه لا يحق لنا أن نعامله وكأنه مؤمن بالله ورسوله، بل الواجب بغضه والبراءة إلى الله منه (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم)[٢]

(١) سورة الممتحنة ٨-٩
(٢) سورة المجادلة ٢٢

ثامناً: التذكير الدائم بالقيم الأخلاقية والمعايير الحضارية في رسالة الإسلام

ليس محموداً من الداعية أن يركز في خطابه لجمهور المسلمين على النواحي العقدية النظرية والشعائر التعبدية، ويهمل الجوانب الأخلاقية والقيم الحضارية في ديننا!! إن المسلم الحريص على صيام رمضان وحج البيت الحرام، هو نفسه الذي قد يخلف الوعد ويخون الأمانة ويكذب في الحديث ويغش في المعاملة، وهو نفسه الذي قد يقع في معاصي القلوب من الغش والكبر والغل والحسد وغير ذلك من المهلكات، وقد يرى أنها أمور هينة تكفرها تلك الشعائر التي يحرص على المحافظة عليها.

لا بد من تذكير الناس بقيمة الوقت في ديننا وأن العبادات ـ في جملتها ـ قد ارتبطت بالوقت، وأن المسلم سيحاسب بين يدي ربه على ساعات عمره، وذلك من أجل أن يكون لنا إسهام في القضاء على ما أصاب الناس من التفنن في قتل الوقت وتضييعه، حتى عدنا مثلاً بين الأمم في إخلاف الوعد وعدم الاهتمام به، وحتى غدا شائعاً بين الناس أن الاجتماع الذي حددت له الساعة العاشرة والنصف سيبدأ في الحادية عشرة، وهكذا.

تاسعاً: التحذير من الغلو والتقصير

فإن الناس في زماننا ما بين غال في الدين وجاف عنه، وقلَّ من يسلم من إحدى تينك الآفتين المهلكتين، لا بد من التذكير بالنهي في نصوص القرآن والسنة عن الغلو وأنه مرتبط بغير المسلمين وأن أهل القرون المفضلة ما عرفوه إلا كظاهرة تطفو على السطح سرعان ما تأتي عليها عوامل التوجيه والإرشاد فتعود نسياً منسياً (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق)[(١)] وكذلك نذكر الناس بأن التقصير مذموم، فتارك الصلاة مثلاً أمره دائر بين الكفر الأكبر والأصغر، ومتعمد الفطر في نهار رمضان علماء الإسلام يظنون به الانحلال والزندقة، وتارك الزكاة المفروضة متوعد بعذاب أليم يلحق جنبه وبطنه وظهره، ولا نتناول الأمر من جانب واحد بالنهي عن الغلو في قيام الليل مثلاً ونهمل من يفرطون في صلاة الجماعة.

عاشراً: التفريق في خطابنا بين الإرهاب الممنوع والجهاد المشروع

فهذه من القضايا التي حصل فيها إرهاب فكري وإعلامي على الناس حتى عميت عليهم الأنباء فهم لا يتساءلون!! بل يكتفون بترديد ما يسمعون ولا يدرون إن كان حقاً أو باطلاً؟ ولا يدري أكثر المسلمين أن الإرهاب المنبوذ بضاعة جلبت إليهم من غيرهم، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) سورة النساء ١٧١

إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما ونجازاكي حيث قتل ١٩٠٠٠٠ ياباني جميعهم من المدنيين تقريباً

ما فعلته جماعة (أوم) اليابانية، الذين ثبت تواطؤهم بإلقاء غاز السارين السام في أنفاق مترو طوكيو، وأدى إلى وفاة واختناق الكثيرين

إرهاب الصرب في حربهم الضروس ضد مسلمي البوسنة في الفترة من ١٩٩١ ـ ١٩٩٤

إرهاب السيخ والهندوس ضد مسلمي الهند وكشمير

وتطرف وإرهاب أعداء المسلمين في كل من (طاجيكستان) و (الفلبين) و (الشيشان) و (بورما)

التطرف الصهيوني في فلسطين المحتلة المدعوم من الغرب والشرق معاً

قصف ملجأ العامرية في بغداد وهدمه على من فيه من المدنيين

تدمير مصنع الشفا للأدوية بالسودان

لا بد أن نشيع بين الناس أن المقاومة المشروعة مراد بها ما يسميه فقهاؤنا جهاد الدفع، وهو ما يدفع به المسلمون عن دينهم وديارهم وأموالهم وذراريهم، ضد من بدأهم بالظلم والعدوان، من جنس ما يقوم به إخواننا في فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان اليوم وما قام به المسلمون في الجزائر والسودان وغيرها من بلاد الله على أيام ما سمي بالاستعمار، وهو مشروع بالإجماع؛ لقوله تعالى (كتب عليكم القتال)[١] وقوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير)[٢] إلى غير ذلك من الآيات، ولفعله صلى الله عليه وسلم وأمره به، لكن بين هذا الجهاد المشروع والإرهاب الممنوع فروق معتبرة من حيث الوسائل ومن حيث النتائج يراها كل من نوَّر الله بصيرته.

---

(١) سورة البقرة ٢١٦
(٢) سورة الحج ٣٩